عقدة فيتنام المستعصية

ماكس بوت

مجلة ويكلي ستاندارد

19 أكتوبر 2009

The Incurable Vietnam Syndrome

By **Max Boot**

The Weekly Standard ***Magazine***

ترجمة: علي الحارس

ماكس بوت

- باحث في مركز (مجلس الشؤون الخارجية CFR).
- محرر في مجلة (ويكلي ستاندارد).
- مستشار في الجيش الأمريكي.
- محاضر في عدد من الكليات العسكرية.
- ألف عدة كتب مرموقة في التاريخ العسكري.
- حاز على جائزة التميز الصحفي (2007).
- ماجستير في التاريخ الدبلوماسي من جامعة يال.

كان الرئيس جورج بوش الأب يعتقد أن الانتصار في حرب الخليج قد جعل الأمريكيين «يتخلصون من عقدة فيتنام إلى الأبد»... فكم كان خاطئا في اعتقاده هذا! إذ شهدنا عقدة فيتنام بكافة تفاصيلها خلال تسعينيات القرن الماضي، حينما انبرى أدعياء السياسة من محللين وناشطين إلى مقارنة التدخل العسكري الأمريكي في هاييتي والبوسنة وكوسوفو، والتي لم تتكبد فيها القوات الأمريكية خسائر تذكر، بالهزيمة العسكرية الأكبر في التاريخ الأمريكي في فيتنام، فكتب أحد المحللين العسكريين في جريدة لوس انجلس تايمز بتاريخ 3 يونيو 1995: «إذا كنت تعلم ما حصل في ديان بيان فو، فستعلم ما سيحصل في سارايفو، فهذه السياسة مجنونة». وراجت تجارة المقارنة مع فيتنام إلى حد غير مسبوق في اجتياح العراق عام 2003؛ فظهر عنوان في مجلة نيوزويك في 29 أكتوبر 2003 مدعيا ومنذرا بأن «أصداء فيتنام تتعالى»، وفي الشهر التالي ظهر مقال في صحيفة نيويورك تايمز يقول: «المستنقع، الاستنزاف، انعدام المصداقية، العرقنة: كلمات تتردد في الجدل حول الوضع في العراق حتى ليخيل إلى السامع أن فيتنام تتكرر مرة أخرى»، وهذا

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

عقدة فيتنام المستعصية

ما يعتقده الناشط الديمقراطي هوارد دين حين قال: «لقد أرسلنا القوات إلى فيتنام دون أن نفهم ما الداعي إلى وجودنا هناك. فكانت الكارثة. والعراق سوف يتحول إلى كارثة في ظل هذه الرئاسة».

لقد كانت التجربة العراقية صعبة، ولكنها لم تصل إلى منزلة الكارثة الحتمية. كما لم تكن بحجم كارثة فيتنام؛ فبعد ستة أعوام ونصف من الحرب، خسرت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من 4300 منتسبا من القوات العسكرية في العراق. وهو رقم جدير بالانتباه والاعتبار، ولكنه يبقى أقل بثلاثة عشر مرة من الخسائر التي تكبدناها في فيتنام. وعلى نفس القدر من الأهمية ما تدل عليه جميع المؤشرات من أننا ننتصر في العراق.

ولكن ينبغي التذكير هنا بأن تاريخا من الإصرار على الخطأ لم يثبط عزيمة هؤلاء الذين ولدوا في فترة طفرة المواليد وبلغوا أشدهم في ستينيات القرن الماضي عن استحضار أرواح الملفات القديمة للتحذير من التدخل العسكري الأمريكي في أفغانستان. وفي الحقيقة، ليس شعار «أفغانستان على طريق فيتنام» جديدا، وإنما كان الصحافي الراحل رايموند أبل قد جعله عنوانا لمقال سيئ الصيت جاء على الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ 31 أكتوبر 2001، حيث تساءل أبل متنبئا:

> هل يمكن لأفغانستان أن تصبح فيتنام أخرى؟ هل تواجه الولايات المتحدة ورطة أخرى في الجانب الآخر من العالم؟ ربما تكون هذه الأسئلة سابقة لأوانها بعد ثلاثة أسابيع فقط من اندلاع القتال، ولكن ليس من الشطط الأخذ بعين الحسبان الندوب الباقية في النفسية العامة من الهزيمة في جنوب شرق آسيا.

كان أبل محقا في أمر وحيد: وهو أن الأسئلة سابقة لأوانها؛ فبعد أسابيع قليلة من نشر المقال تم إسقاط حكومة طالبان، ثم تخلصنا بعد ذلك من العبارات الشبيهة بـ«أفغانستان على طريق فيتنام» حتى عادت المقارنة تثأر لنفسها في خضم المكتسبات التي حققتها طالبان في عام 2009. كانت نيوزويك سبّاقة في إثارة الأمر من جديد عبر

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

عقدة فيتنام المستعصية

مقال غلاف العدد الصادر في مطلع فبراير تحت عنوان «فيتنام أوباما». وأحدث من ذلك المقال الذي كتبه الجنرال المتقاعد والمرشح الرئاسي السابق ويسلي كلارك في صحيفة نيويورك دايلي نيوز، وجاء فيه أن «أوجه الشبه مع فيتنام تنذر بالسوء». أما السيناتور جون كيري، والذي يبدو أنه يذكر فيتنام مع كل نفس يتنفسه، فادعى في الأول من أكتوبر 2009 أن...

> الحقيقة تتمثل في أننا كنا في الوضع ذاته من قبل. فكما تعلمون، كنا نسمع قيادتنا على الأرض في فيتنام وهي تطلب المزيد من القوات. لقد سمعنا رئيس الولايات المتحدة الأمريكية مؤخرا يقول بأننا إن أرسلنا المزيد من القوات فسنبصر الضوء في نهاية النفق.

لكن باراك اوباما لم يقل أي شيء عن ضوء في نهاية النفق؛ فالرئيس، والذي أسعفه الحظ بالبلوغ بعد حرب فيتنام، بدا وهو يعرقل هذه المقارنات الفارغة حين قال في معرض رده على أحد الأسئلة في 15 سبتمبر: «لا يمكنك أن تضع قدمك في النهر ذاته مرتين، وهكذا فإن أفغانستان ليست فيتنام». وعلى الرغم من ذلك، لا يزال استرجاع المثال الفيتنامي يفاجئ الرئيس من خلال مساعديه ومؤيديه، كما حصل حين حذر الصحافي يوجين ديون في مقال كتبه في صحيفة واشنطن بوست بتاريخ 5 أكتوبر من أن التدخل في أفغانستان قد يضر بالأجندة المحلية للرئيس كما أضرت فيتنام بمشروع (المجتمع العظيم) للرئيس ليندون جونسون. كما تسري شائعات كثيرة بأن الكتاب الأكثر شعبية في البيت الأبيض هو (دروس في الكارثة: ماك جورج باندي والطريق إلى الحرب في فيتنام) للكاتب غوردون غولدستين، وهو دراسة تدور حول ماك جورج باندي (McGeorge Bundy)، مستشار الأمن القومي في عهدي الرئيسين كينيدي وجونسون، ودوره في حرب فيتنام. أضف إلى ذلك ما كتبه مراسل صحيفة (تايمز) اللندنية بتاريخ 24 سبتمبر حول حوار مع «مسؤول كبير» في البيت الأبيض، حيث «استخدم كلمة (فيتنام) في معرض نقاش حول أفغانستان».

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

عقدة فيتنام المستعصية

صحيح أن اختصاصي في التاريخ العسكري لا يؤهلني للمحاججة في الاستفادة من التاريخ في عملية اتخاذ القرار السياسي؛ ولكن دراسة الحروب السابقة قد تكون ذات أهمية كبرى، إن جرت على النحو المناسب، في توجيه إدارة الصراعات الحالية والمستقبلية؛ ويكون مفتاح ذلك بأن نتلقى الدروس بانتقائية حاذقة وأن لا ننشغل بالمناقشات الكسولة من أمثال «فيتنام حرب أمريكية، (س) حرب أمريكية، إذن: (س) فيتنام أخرى».

فيتنام... بين العراق وأفغانستان

لقد شهد الصراع الفيتنامي عوامل متنوعة لا تتوافر في أفغانستان والعراق. حيث كانت فيتنام الشمالية دولة منظمة يحكمها حزب وحيد، وتمتلك أحد أكبر جيوش العالم وأكثرها تمرسا بالمعارك، وتتمتع بشرعية نالتها من صراع خاضته ضد الاستعمار الفرنسي بدعم من قوتين عظميين: الصين وروسيا؛ كما كانت كل طاقاتها مسخرة في الفترة (1954-1975) من أجل هدف واحد: ضم فيتنام الجنوبية. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار مثل هذا العدو العنيد، والذي قاتلنا بحرب عصابات وحرب نظامية في الوقت نفسه، فإن الهزيمة الأمريكية تصبح حينها أكثر قابلية للتفسير وأقل قابلية للاستنساخ.

أما في الحالة العراقية، فإن المقاتلين هناك، سنة وشيعة، كانوا عنيدين، ولكنهم لم يكونوا بمستوى الفيتكونغ[1]. وقس على ذلك مقاتلي طالبان. فالفيتكونغ كانوا أكثر قدرة على الانخراط في اشتباكات طويلة مقارنة بتنظيم القاعدة في العراق أو جيش المهدي اللذين عجزا أيضا عن المناورة في كتائب أو ألوية أو فرق كما كان يفعل الفيتناميون. إن مقاتلي طالبان، وأشباههم في العراق، يفضلون استخدام العبوات الناسفة بدائية الصنع، وهي لا تحتاج إلى شجاعة كبيرة لزرعها. وعلى الرغم من أن طالبان يتمتعون، كما الفيتكونغ، بملاذات آمنة عبر الحدود، فإن الدعم الذي يتلقونه من باكستان لا يصل أبدا

---

1) الفيتكونغ: الترجمة الحرفية للمصطلح تعني (الفيتنامي الشيوعي)، وهو يطلق على مقاتلي جبهة التحرير الوطني في فيتنام الجنوبية الذين خاضوا حرب عصابات ضد حكومة فيتنام الجنوبية والقوات الأمريكية في الفترة (1954-1976) لتوحيد شطري فيتنام. (المترجم)

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

إلى حجم الدعم الذي حصل عليه الفيتكونغ من فيتنام الشمالية، بل إنه لا يصل إلى حجم الدعم الذي حصل عليه المقاتلون الأفغان في حربهم ضد الجيش السوفييتي في ثمانينيات القرن الماضي. أضف إلى ذلك أن صفوف طالبان غير متراصة كما كان الفيتكونغ، حتى أن اسمهم غير مناسب، حيث يدل على مجموعات من المقاتلين لا يربط بينها انتماء راسخ ولا قيادة موحدة كالتي كانت للقوات الفيتنامية. لذلك فلا يوجد إلا مخاوف ضئيلة من شن هجمات منسقة شاملة كما حدث في حملة (تيت) عام 1968. ولا تتمتع أية جماعة متمردة أفغانية بمكانة وشرعية تقترب بأي شكل من الأشكال، محليا وخارجيا، بما كان يستطيع الفيتكونغ حشده لقتال الفرنسيين أولا، والأمريكيين تاليا. إن الملا عمر ليس هو تشي منه، وكذلك جلال الدين حقاني.

دروس من فيتنام

إذا تركنا ما سبق جانبا، فهل هنالك دروس يمكن تعلمها من تجربة فيتنام لكي نستفيد منها في قتال طالبان وأعدائنا الراهنين؟ لا شك في ذلك، ولكن الدرس المناسب لا يتلخص في لافتة «لا يمكننا تحقيق النصر». ففي الحقيقية، كدنا نحقق النصر هناك في الفترة (1968-1972)، وهذا مذكور بالتفصيل في كتاب (حرب أفضل: الانتصارات المجهولة والمأساة النهائية للسنوات الأخيرة لأمريكا في فيتنام) والذي ظهر عام 1999 بتوقيع الكاتب لويس سورلي، ولكن المشكلة كانت في التمسك بذلك النصر. ولو كانت أمريكا قد استمرت بتقديم الدعم الكبير لفيتنام الجنوبية بعد توقيع اتفاقيات باريس للسلام عام 1973 لمقابلة الدعم الذي كانت موسكو وبكين تقدمه لفيتنام الشمالية، لكان يحتمل استمرار فيتنام الجنوبية في الوجود كما استمرت كوريا الجنوبية.

إن التجربة الفيتنامية تبرهن أهمية تطبيق تكتيكات متينة لمكافحة التمرد مبنية على أساس حماية السكان، وليس طرق (ابحث ودمّر) التقليدية المطبقة في أولى سنوات الحرب، والتي أوقعت خسائر هائلة في الطرفين (والمدنيين أيضا)، وأدت في النهاية إلى

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

عقدة فيتنام المستعصية

تبديد الالتزام الأمريكي بمواصلة القتال. وكما حدث مع الجنرال كريتون ابرامز الذي تسلم قيادة العمليات العسكرية في فيتنام عام 1968، فقد ورث الجنرال ماكريستال مجهودا حربيا تقليديا، وهو مصمم على تحويله إلى نوع آخر يكافح التمرد ويركز على السكان المحليين. والفرق بين أفغانستان وفيتنام هنا أن الجيش الوطني الأفغاني والقوة الأمنية الأممية الساندة أصغر بكثير وأقل قدرة مما يناظرها في فيتنام (جيش جمهورية فيتنام والقيادة العسكرية الأمريكية الساندة آنذاك). وعند موافقة البيت الأبيض سيكون من اللازم إرسال عدد كبير من التعزيزات على نحو سريع دون الوقوع في أحد أخطاء التجربة الفيتنامية عندما اعتمد الرئيس جونسون استراتيجية الزيادة التدريجية للقوات، حيث أدى ذلك إلى تمكين العدو من التلاؤم مع التكتيكات الأمريكية وانتزاع زمام المبادرة في المعارك.

كما تبرهن التجربة الفيتنامية على أهمية عدم تكليف حلفائنا في العالم الثالث ما لا يطيقون. إذ ساعدت إدارة الرئيس كينيدي على إسقاط نغو دِن ديَم رئيس فيتنام الجنوبية عام 1963، ولم تتمكن فيتنام الجنوبية من الحصول على قائد آخر يماثله في القوة أو الشرعية. إن هذا الدرس ينبغي أن يترسخ في الذهن في وقت نسمع فيه المنتقدين يصرون على أن حصول التقدم في أفغانستان يتطلب إزاحة الرئيس الأفغاني حامد كرزاي بادعاء أنه لا يملك المصداقية اللازمة لمساعدتنا في تحقيق النصر، ومن ذلك ما جاء على صفحات نيويورك تايمز للكاتب الصحفي فرانك ريتش: «كرزاي، والذي يعرف عن أخيه العمل في تهريب المخدرات، إنما هو نسخة عن نغو دِن ديَم». لنأمل أن لا يواجه كرزاي مصير ديَم ذاته، لكن إذا ساعدت أمريكا على إزاحة كرزاي، فسيكون من الصعب على خلفائه أن يكتسبوا الشرعية كما حدث مع حلفاء ديَم من قبل.

ثمة نقطة حاسمة أخرى تستلهم من التجربة الفيتنامية، وهي أهمية قوة الإرادة في المجهود الحربي. لقد كانت فيتنام الشمالية أصغر بكثير من أمريكا، لكن رغبتها بالنصر كانت أكبر بكثير. وبالمقارنة مع الوضع الراهن، نلاحظ أن البيت الأبيض يشوبه التردد، وهذه

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

عقدة فيتنام المستعصية

من بقايا إدارتي جونسون ونيكسون اللتين كانتا أكثر اهتماما بإنهاء الحرب من الانتصار فيها.

إذا قرر الرئيس اوباما في النهاية أن لا يلتزم بالمسألة الأفغانية على نحو جدي طويل المدى، فسيرتكب الخطأ ذاته الذي ارتكبه العديد من الديمقراطيين في أوائل سبعينيات القرن الماضي حين ادعوا أن بإمكاننا الخروج من فيتنام دون أذى يصيب أمريكا أو المنطقة. إننا ندرك اليوم أن هزيمة أمريكا كانت مأساة لشعوب جنوب شرق آسيا، حيث قُتل الملايين من الكمبوديين في «حقول القتل»، وخرج مئات آلاف الفيتناميين إلى عرض البحر في أطواف مهترئة في حدث عرف بـ«شعب القوارب». كما كان لذلك ضرر لا يقدر على مكانة أمريكا في العالم، مما شجع أعداءنا على توجيه ضربات إلى حلفائنا من إيران إلى نيكاراغوا. لقد تطلب الأمر منا عقدا كاملا للشفاء، ولا نزال حتى اليوم نتعامل مع بعض إفرازات تلك الحقبة كالثورة الإيرانية، والهزيمة في أفغانستان تعني عواقب على نفس الدرجة من الشدة، وهذا إن كانت مختلفة عنها أصلا.

على الرغم من ذلك، فإننا مدعوون بشكل عام إلى التعامل مع المقارنات الفيتنامية بعناية شديدة، وان نركز على خصوصيات الصراعات الراهنة، لا أن نصبها في قوالب مر عليها أكثر من ثلاثة عقود، وهذا هو بالضبط ما يقوم به الجنرال ماكريستال وضباطه؛ حيث تستند ملاحظاتهم إلى مراجعة حذرة واقعية للأحداث، بينما يبدو العديد من منتقديهم تحركهم ذكريات الستينيات، وليس فهمهم للوضع الراهن في أفغانستان.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net